كسيح ولا مسيح .
....
كل ليل كل صبح
أرمل من جديد أيتم .
أفجع من ردى
لا قيامة بعده
ردى فقيامة فردى .

هذا الردى المتكرر لن نجد ، مهما بحثنا في الكتب ، من استطاع الخوض فيه بهذه التفاصيل المذهلة الراعبة كما فعل توفيق ، ساردا اياها في صور تشع بالفعل والرمز معا، سوى قلة من الشخصيات التاريخية . فلكي نجد له مقارنة في عالم التجربة او عالم الكتابة، لا بد من عودة الى ما خطه القديسون القدامى . ويبدو ان الشاعر كان يحس ذلك ولو حسا مبهما ، فأدخل رسالة من القديس جيروم الى جوليا في صلب معلقته ، تأكيدا على بعض تجربته : رؤى الجسد الفاحش تنهك الناسك في صحرائه ، حتى لتنقلب « خشتي الخالية / مرقصا فاحشا بروما » . فيرتمي على قدمي المسيح يسقيهما بدموعه ، محاولا اخضاع ثورته بالصلاة والصوم . (ولنذكر ايضا رواية فلوبير عن القديس انطون ، وهو نهب غواياته الشهوانية ، ورؤاه تنهمر متلذذة ، جاهشة ، عاصية ، مستغفرة ، وهو يعيش في القفر على كسرة من خبز وابريق من ماء مج ، والغوايات الشرسة تتواتر بين اسطر العبادة .) غير ان توفيق صايغ يضيف الى ذلك كله تنسكا هو تنسك مجرد ، بحت ، خلا حتى من سلوة الايمان . فهو يتخلى عن « تلته الخضراء » بكل ما فيها من لذائذ الحس ومحفزاته ، لينصب له « جبلا شامخا قاحلا هالكا مهلكا » يأوي الى قمته ، ملتفعا بالغبار ، حيث لا اله يناجيه ، حيث، كما يقول : « نجو ، ولا نجاة ، ولا نجي . »

وما هذا الا جزء من مضمون « المعلقة » . انها صراخ ايوبي صادر لا عن آلام الجسد (كما في سفر أيوب ، او في أيوبيات السياب الاخيرة) ، بل عن تحرق ذهني حممي يتفجر في الاعماق ، ويبعث الشروخ والصدوع عاليا وسافلا في الجوهر من كيان الانسان ، حيث الكسح يهدد سويداء القلب من هذا المتمرد العاشق الجائع العطش المطارد في أزقة المدن الكبرى . انها قصيدة تتناثر لظى ، في اربعة مقاطع ، كحركات اربع ، مواضيعها على التوالي : المبارزة بسيفي نار بين الام والحبيبة فوق رأس الشاعر الطريح في الفراش نصف مشلول ، الام (في ارتدادة زمنية مسلسلة) وهي تنقذ الشاعر من نار بعد نار ، من ارض لماء ، من وطن "نمى ، الى ان تموت ، « فيستهل عهد التيه » ، الحبيبة المرفوضة المشتهاة وهي تمعن في الطعن حتى في غيابها ، والشاعر « الناسك » يخبط في تيه الحاضرة الكبيرة وحيدا ، والحب يخترقه وينساب فيه « أنهرا من البواليع » ، والصراخ في النهاية عند قدمي المصلوب ان«اعنّي. اعنّي . »

كل ذلك في شعر حاد ، صلب كالسكاكين ، يعتمد ترديد الموضوعات وتركيبها كما في الموسيقى ، متوترا صاعدا نحو ذروة مرة كالموت ، وان تكن ايضا ذروة أخيرة من الايمان .

لقد كانت هذه القصيدة ، بالنسبة الى توفيق ، طقسا شعائريا ، طهر به نفسه . كانت ضرورية له ضرورة تلك الكفارات والصلوات التي يذكرها في اشعاره . غير انّ ذلك لم يكن كافيا له . فقد كان توفيق يريد ان يحقق لا الخلاص وحده ، بل الشعر ايضا . وكان يعلم في قرارة ذهنه ، انه لن يحقق الخلاص اذ لم يحقق الشعر ، لشدة ما قرن بين الاثنين . وذلك بالضبط هو ما استطاع ان يحقق : لقد خلق شعرا جديدا ، عظيما . كان هو يعلم ذلك — وثقته بما يعلم لا يزعزعها رأي من احد — وكان بعض عارفي فنه يعلمون ذلك . غير ان خيبته كانت أليمة ، لان شعره لم يقرأ . كان يحس كأن حجابا من دخان يطلق من حيث لا يدري لمنع رؤيته ، ورؤية شعره . ومهما كانت فترة الخمسينات والستينات فترة التجديد الثائر ، فانه كان لا بد للشاعر فيها ، لكي يقرأه الناس ، ان يبرع في الاعلان عن نفسه باستمرار ، ان يفتعل المناظرات والمهاترات ، ان ينضوي تحت الوية يتبناها وتتبناه . وهذا ما رفض توفيق ان يفعله . رفض ان يعلن عن نفسه او ان يفتعل مهاترة او ان يتبناه أحد . بقي شعره للقلة ، وبقي شعره ذا نفوذ صامت ، قلما تحدث عنه حتى المتأثرون به — ولو ان التأثر به ظل هو ايضا أمرا نادرا ، لتميزه وفذاذته وصعوبته . غير انه بقي شعرا أكاد اقول رهيبا ، موضوعا على الرف كقنابل موقوتة لا بد يوما ان تنفجر .

من المأساة الا بد للشاعر احيانا من ان يموت قبل ان تتضح معائبه ، وتتجلى أهميته . من المأساة ان نكتشف بعد وفاة توفيق ان « معلقته » من اعظم قصائد العصر . لو أنفق على شرحها عشر الجهد